هاجر فى البريّة

سلام علىٰ إبراهيم..

كان أمّةً حقًا وقد ابتلاه ربّه، وجعل حياته كلها سلسلة من المواقف الصعبة والمحن العسيرة.

كان يخرج من امتحان ليلقى بلاءً عظيمًا، ويجتاز شدّة ليواجه بمحنة مبينة. وبين ذلك يلقى محاجاة ظالمةً، وضغوطًا ثقيلة.. ومواجهةً محرقة، ونفورًا من الأب ونُذرًا مستطيرة.

ذلك لأن الله يحبّه.. وجعله للناس إمامًا وللأنبياء أبا واتخذه خليلا.

- ومن يحببه الله أكثر يبتله كثيرًا.

وقد اجتاز إبراهيم الخليل مصاعب جمّة، ومواقف عنيفةً.. وعبر مثلث الصبر المهول - فى البأساء والضراء وحين البأس -

حتى يصير للناس آيةً، ويصبح من أولى العزم من الرسل.

ومنذ أن كان صبيًا يقلّب وجهه فى السماء.. ويرفض تلك التماثيل التى يعكفون عليها وهى لا تضرّ ولا تنفع تربصّ به القوم وأتوا به على أعين الناس - وأضرموا نارًا عظيمة.

ونحن أيضًا يمكننا القفز من فوق اللهب.

مادمنا ننضمّ إلى جيش الباحثين عن الحقيقة، والمجاهدين فى سبيل الحق.. علينا بالتمرس بمدرسة النضال، والمجاهدة والمصابرة حتى نفوز بالشهادة أو النصر، ونستحق أن يقول الله من أجلنا (يانار كونى بردًا وسلامًا) علينا باجتياز النيران التى يصبّونها فوقنا فى المخيمات والدوَر والطريق العام.

٢

رفع إبراهيم الخليل يديه إلى السماء. وقلبه يخفق بعنف، ويكتم روعه.. يدعو الله السميع البصير.

(ربنا إنّى أسكنت من ذرّيتى بوادٍ غير ذى زرع عند بيتك المحرَّم ربّنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدةً من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثّمرات).

كان أمام اختبار بيّن..

يخرج بهاجر زوجه - وطفله إسماعيل إلى البرية: وادٍ قفر - غير ذى زرع - ويتركهم هناك وسط الوحشة والغربة..

موقف عسير ..

لكن الرسول الحانى ، والأب العطوف فعله .. وخلّفهم من بعده ، وهو لا يقدر أن يلتفت إليهم .

لكنه تطلّع إلى ربّه ودعاه .

هاجر كانت أشدّ منه وجلًا وحيرةً .

تسأل مروعةً .. كيف تركنا .. ولمن تكلنا ؟ .. ولا تجد جوابًا ..

وقفت مذهولةً مدهوشة ..

كان يجب أن تقول شيئًا .. تسمع صوت نفسها ، تلتمس إشارة من داخلها .. قبل أن يغيب عن ناظريها تمامًا .. سألت : هل الله أمرك بهذا ؟

خيّل إليها أنها رأت علامة أن نعم .

عادت تنظر حولها .. تقف وحيدةً هكذا فى قلب وادٍ سحيق ، تواجه القفر والعراء ، ولا إنسان حولها .

امرأة شابّة وطفل رضيع ؛ ألقى بها إلى العزلة وإلى المجهول اليأس محيط بها .. لا مخرج ولا مفرّ .

يمكن أن تنهار .. تصرخ .. تلقى بنفسها من حالق .

ظلّت واقفةً .. سمعت نفسها تقول : الله لن يضيّعنا ..

« الله لا يضيّع أهله أبدًا » ..

٣

برقت الفكرة المضيئة داخلها .. أحسّت أمنًا ودفئًا ..

عند ذكر الله تطمئن القلوب ، ويتبدّد اليأس ويشتدّ عودك .. وتسرى فى كيانك قوىً كامنة ..

ربط الله على قلبها .. استعادت هدوءها .. أخذت تدير بصرها فيما حولها .. وتتدارك أبعاد الموقف ..

أرض صعبة وطبيعة موحشة ..

والصغير بدأ يشعر بالعطش ويتلوّى من الألم .

لابد من عمل شىء .. التجمّد هكذا غير مفيد ، لابدّ أن تسعى .. تفكّر .. حركة فى أىّ اتجاه .. الحركة والسعى يمنحان الثقة والأمل .

أطلّت على الوادى .. صخر ولا ماء .. حجارة ولا ماء .

اندفعت ترتقى الصفا ، وترتد إلى المروة تبحث عن قطرة ماء .

ظلّت هكذا تسعى بين الجبلين مكدودة .. متعثرة .. إنها رمز لمقاومة الإنسان للحركة الصاعدة إلى السماء تلتمس عونًا وغوثًا ، وتسعى بإصرار لأن تعمل أقصى ما فى طاقتها وجهدها .

سبع مرات تروح وتجىء مصرّة ، مليئة بالرجاء مفعمة بالأمل تنادى ربّها .

ما كانت تدرى ساعتها أن الملايين من أقدام المؤمنين ستظلّ

تهرول ، ساعيةً بين الصفا والمروة تخليدًا لهذا الموقف الصعب.
وتسليمًا للنفس والوجه إلى الله .. وعدم اليأس من رحمته ..
السعي والحركة واستمرار المحاولة أمام لحظة موصدة يبدو ألّا مخرج منها ولا انفراج لها.
وتحدث المعجزة : يتفجّر الماء من قلب الصخر .. وينبثق السلسل العذب .. يرتوى الصغير .. ويحوم الطّير ويقبل قوم رحّل آنسوا ماءً ومكانًا آمنًا ويبدأ العمار والازدهار.
ونحن أيضًا نستطيع أن نتمثّل الموقف ، ونصل إلى ذروته .. ونقيس به حركة حياتنا أمام محنة أو اختبار أو بلاء لا نهن ولا نحزن ولا ننكسر ..

٤

نسعى ونعمل أقصى ما فى وسعنا .. نطرق كل الأسباب .. ونبحث عن قطرة فرج وانفراج سيكون الله معنا حاضرًا وشاهدنا ..
وتقع المعجزة ..
سبحانه هو الذى يقصّ علينا من أنباء الرسل والصالحين والصدّيقين والشهداء ما نثبّت به أفئدتنا ، وتثبيت أقدامنا.
نتوقف أمام هذه الشخصية الباهرة « هاجر ».
ليست من الأنبياء ..

إنما هى إنسانة بسيطة .. زوج وأم حانية .

كيف استطاعت أن تصمد أمام الموقف الرهيب .. من منّا يتحمّل أن ينفى خارج دياره .. ويقذف به إلى البرية دون عدّة أو عتاد ؟.

فى قمة الحرج والأزمة يجب أن نسعى ونعمل ، حتى ولو بدت الحركة وكأنها مجرد رمز عن الاستمرار والمثابرة ..

معجزة الحياة من قلب العتمة ينبثق النور .. والله بقدرته ، وفعل إرادته ..

يحيى موات النفس والأرض ، ويخرج حبًّا من أرض ميتة ..

ومادام القلب مليئًا بالإيمان .. والإنسان مستقيمًا ويعمل صالحًا .. فلابدّ أن تقع المعجزة ويتعدى الأسباب وحسابات القوى ، وتكون له الغلبة والنجاة ..

هاجر كانت أميرةً من جنوب الوادى تعدّ لملك مصر ، لكنها وقعت فى الأسر لملوك الرعاة ..

كان يمكن أن تنهار وتنتحب ..

من مليكة متوجة إلى أسيرة وسجينة .. ايّ مصير تعس .. !

كان يمكن أن تهين نفسها وتستخدم أساليب النساء وكيدهن وترضى برتبة المحظية المقرّبة .. لكنها فى السجن تعلّمت درسًا نافعًا ..

" لا يهمّ ما يكون لقبك أو منصبك .. المهم حقيقتك .. ومدى

احترامك لنفسك ؛ تحررت فى السجن من مظاهر الترف وأبّهة الملك. وسطوة السلطان وزيف التابعين والمنافقين، وجدت نفسها وأصرّت أن تواجه المحنة رافعةً رأسها صامدة..

٥

المظاهر والترف والأتباع ليست دليلاً على العظمة، العظمة الحقيقية تكمن داخل الإنسان عندما يتّبع الحق، ويتمثل قيم الشجاعة والتضحية.

ويبدو أن الأميرة المصرية قد لاقت فى السجن واحدةً ممّن يكتمن إيمانهن.. تعلّمت فى مدرسة الصمود المصرى.. أرض الصبر والمعاناة والربوة المباركة. تعلّمت التوحيد واطمأن قلبها، واشتدّ عودها..

نجّاها الإيمان من الأسر..

حرّية فسيحة تشعر بها وقلبك مطمئن بالإيمان - حتى وأنت داخل أسوار مغلقة.. وترجو من الله ما لايرجون..

قيود الحديد.. أو قيود الصخور والحجارة.. لقد مرّت من التجربة واستفادت منها ولم تيأس أو تهن، وأوجد الله لها مخرجًا.

هكذا عندما واجهت محنتها فى البريّة.. ذكرت الله فى قمّة الخوف والعطش، رطّبت لسانها بذكره..

كانت تهرول صاعدةً هابطةً تبتهل.. وتناجى ربّها، وشاهدت

الصخر يتشقّق منه الماء.

وترى - رأى العين - كيف يصير القفر بلدًا آمنًا تهوى إليه الأفئدة من كلّ البقاع..

واستجاب الله لدعاء إبراهيم الخليل عليه السلام..

(فاجعل أفئدةً من الناس تهوى إليهم).

هو فى دعائه المكروب.. فى شدّة الغمّ والحزن يطلب أن تحيط بهم قلوب الناس، يعوّضهم الله عن عذاب الوحدة وقسوة العزلة..بين الناس تجد سكنًا ومودّة، ودفء المشاركة.

هى الحياة الحقّة بين الناس والعمل معهم ومن أجلهم..

ربّنا إنّنا نسكن مدنًا عامرةً وبقاعًا مزدحمة، وبيوتًا آهلة ومع ذلك نحسّ بالوحشة.. بالرجفة.. بالقسوة..

مع إبراهيم الخليل ندعوك خالقنا ووليّنا.. ربنا لا تذرنا فرادى أبدًا، واجعل بلدنا آمنًا.. واجعل أفئدة من الناس تهوى إلينا وارزقنا من الثمرات. وهيئ لنا أعمالاً صالحة.

وإذ قال ربُّك للملائكة

١

لست أدرى تمامًا ماذا يدور فى عقل هذه الصغيرة الجميلة ؟.

ما الذى يجعل عينيها مشدودتين إلى السماء، تسعان الأفق.. وتنطلّقان إلى أمام، وكأنها مشغولة بأمور جسام: بنشأة الكون الأولى.. ووجود الإنسان والمعنى وراء أشياء كثيرة - برغم السن الغضة والنضيرة ؟.

يبدو أنها جاءت مزوّدة بطاقة غريبة قادرة على إثارة السؤال والرغبة فى الحصول على إجابة مقنعة ودقيقة.

دفعتنى الصغيرة لأجرب معها أسلوبًا جديدًا.. تجربة علمية شيقة ومثيرة.. ما إن تحاصرنى بسؤال حتى أجيبها بآخر ما وقفت عليه من خلاصة البحث والدرس، وهداية الدين.

والغريب أنها تبدى تفهمًا واستيعابًا كأنها وجدت بين كلماتى بغيتها وما كانت تبحث عنه، ولا تلبث أن تنصرف عنى تمارس ألعاب الطفولة.. إلى أن تقفز فوق علامة استفهام جديدة.

ومثل كلّ الأطفال تحبّ القصص وتعمل خيالها فيها، وقلت أتلو عليها قصص القرآن..

فهو أحسن القصص، ونور ربّانىّ تنفتح به عقولنا.. وتثرى أرواحنا ونستلهم أنباءً وعبرةً، ومواقف شامخة ونبيلة..

المهم أننى أمام هذه التجربة - مع ابنتى - تعلّمت كثيرًا.. واستفدت علمًا عظيمًا..

إنك أمام البراءة والنقاء.. تجدّف فى ماء طهور، وتترك علامات منيرة..

٢

وفى محاولة تجسيد القصة وإبراز الفكرة الأساسية للصغيرة.. تجد أنك قد أحطت علمًا بما لم تعلم من قبل..

وتتحدّد أمامك الغاية من القصّ المبدع للبيان الربّانى..

وأنت أمام الفطرة السليمة تدرك أهمية الإقناع، والأسلوب الذى ترفق بنا الإله وحدّثنا به، وقدّم الدليل والبرهان والحجة دائمًا.. وطالبنا أن نتأمل ونفكّر ونتدبّر المعنى.. ونتخّذ موقفًا نبيلًا..

وكنت أستغرق فى إعادة التلاوة، وإبراز جوانب القصة ونحسّن

من أسلوبنا وأدائنا وليجعل الله لنا نورًا نمشي به في الأسواق وبين الناس، ونغرسه في جوف الأبناء.. وفي مجال حركتهم وعملهم.

وبدل أن تغفو الصغيرة العذبة على صدر قصص الأبطال والشهداء والصالحين.. كانت تتيقّظ وتنشط وتلقى بأسئلة حادّة وعنيفة.

وأحيانًا عندما تفتح عينيها في الصباح تلقي بسؤال وكأنه ظلّ يعمل معها طوال الليل وداخل باطنها الغضّ..

أعيد التلاوة وأحفظها أمامها..

(وإذ قال ربّك للملائكة إنّي جاعلٌ في الأرض خليفةً قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبّح بحمدك ونقدّس لك قال إنّي أعلم ما لا تعلمون).

قالت: وهل غضب الله من الملائكة عندما قالوا له هذا؟

قلت: إنما شاء الله سبحانه أن تكون القصة عن بداية خلق أبينا آدم بطريقة الحوار هذه، لكي نفهم المعنى من تكريم الله للإنسان وجعله خليفة، وتفضيله حتى على الملائكة..

المهم أن نفهم المعنى.. المهم علوّ مكانة الإنسان عند خالقه..

٣

– يقول شيخنا الإمام محمد عبده إن الحوار في الآيات شأن من شئون الله تعالى مع ملائكته؛ إنما صوره لنا بالقول والمراجعة

والسؤال والجواب لندرك مدى تكريم الإنسان. وأن القصة وردت مورد التمثيل.

وقلت: إن القصّة صوّرت على هذا النحو من « قاعدة افتراضية » بحدوث أخذٍ وردّ.. وسؤال ومراجعة.. أو تعبير عن دهشة.. لكى نلتفت بشدّة للغاية وراء القصة.

صورة افتراضية بليغة بغرض حدوث « التعجّب »

ويحسم الله سبحانه الأمر بعلمه وحكمته (**إنّى أعلم ما لا تعلمون**)

والحكمة من تجسيد الصورة على هذا النحو الدرامى، ونموّ العقل المباشر فيه نموًّا عضويًّا على هيئة حوار.. ليس فى أنه « حدث » أو « وقع » أو « جائز أصلًا » ولكن لخلق تيار من الوعى يجعل المؤمن يغوص وراء الحكمة فى خلقه..

ومعنى وجوده، وعلوّ شأن الإنسان لدى خالقه تعالى.

وإمكانية أن يحقّق السموّ والنبل فى سلوكه وعمله ليكون خليفةً على الأرض حقا.

ولنضرب مثلًا بشريًّا مبسّطًا.. لتفهم الصغيرة أكثر، وتتّضح الصورة..

أب جليل ومهاب.. عرف عنه الحكمة والاتزان.. تصرّف على نحو ما فى أحد الأمور؛ يبدو وقعه غريبًا على نفوس الأبناء وقد تخفى الحكمة من ورائه.

ربما منعهم الحياء، وشدة الثقة بالأب.. وحسن التربية من إلقاء السؤال مباشرة والاستفسار..

ولكن ذلك لا يعني أن السؤال لم يرد.. لقد شغل بالهم، ونطقت به عيونهم أكثر من ألسنتهم..

ويدرك الأب حيرتهم وعجبهم «لمعرفته بهم» ويجيء إليهم متفهمًا حنونًا، يحكي لهم ما خفي عنهم.. «والحكمة» من وراء تصرّفه وبعد نظره في المسألة..

٤

يبدأ حديثه بافتراض أنهم وجّهوا السؤال، وألقوه أمامه وكلمات تعجّبهم واعتراضهم.

يقول لهم: ربما سأل أحدكم نفسه ما السرّ فيما حدث؟.

ولماذا التصرّف على هذا النحو؟.

واليكم تفسير ما خفي عليكم.

– هنا ينطلق في الإيضاح والتفسير من خلال افتراض حدوث الاعتراض والمحاورة.

ويقول الله سبحانه (وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون).

لقد عرفتنا القصة بقيمة أنفسنا، وما نتميّز به على سائر المخلوقات.. العلم والمعرفة التي تصلنا بالخالق، ويزداد إيماننا وندرك حكمة الله في خلقنا.

وهو يعلّمنا « الكتاب والحكمة ».
ويقرن دائمًا الحكمة بتعلّم الكتاب.
ويصل الذين « أوتوا العلم » بالإيمان وبه سبحانه وتعالى..

صيغة المستقبل

١

ادّعى « فيلسوف » أن الغد لا يأتى أبدًا..

لأنه اليوم الذى كنت تنتظره بالأمس.. والحاضر الذى تطلّعت إليه فى الماضى هكذا ننتظر الغد.. لكنه لا يجىء..

أحسست برعب.. الغد يأتى دائمًا، ونحن فى انتظاره دومًا لأنه محمل بالأمل.. مشحون بالأحلام يجىء بثمرة العمل والغرس، والحركة الصالحة.

نتحصن بالغد الواعد الرحيم.. خاطبنا الله بلغة المستقبل فى كتابه.. جعلها صيغة رحمة ومحبّة وتطلّع إلى الثواب والرضوان، وإلى أعلى مراتب الترقى والمحبة.

تلك الدائرة الساحرة، تجعل الحياة محتملةً مستمرةً وحافلة..

هذه النظرة المستقبلية، والكلمات الربّانية الواعدة تجعلنا نصبر.. ونصابر ونقوى على الابتلاء والمحن.

الغد هو شراعنا الممتد نحو علام الغيوب الرحيم الرحيب..

إنه يأتى بوفرة.. يأتى كثيرًا.. معجزة الليل والنهار واختلاف النور والظلام.. ويظلّ الأمل به محلّقًا، والعمل يتوجّه ناحيته.. والإتقان يعلو بنا حقا، والوعد قائمًا بشروق صبح جديد دائمًا.

من رحمة الله علينا ذلك التداخل السحرى بين الأزمنة: الماضى والحاضر والمستقبل.. كرة هائلة تدور بنا.. سيمفونية الزمان الرائعة.

سألنا الله أن جعل علينا الليل سرمدًا، أو جعل النهار سرمدًا.. وكنّا فى بداية طريق التعلم والمعرفة نقرأ جزئيات صغيرة من هذه الأفكار العالية فإذا بنا ننبهر.. وندهش لعمق تفكير الأديب أو الفيلسوف.

٢

لكن كل الحكمة والمعرفة متاحة لنا فى كتابنا: تبيانًا لكل شىء محكم آياته، وباهرة كلماته تسع كل شىء، وتجعلنا من الراسخين فى العلم..

غمرنى السرور عندما تذكرت تلك المعجزة الربانية المبهرة: معجزة الليل والنهار، الظلام والنور العتمة والضيق، ثم يأتى الصبح

من جديد « أليس الصبح بقريب » ؟.

أمامنا كبشر هداية العقل والدين ويمكننا التخطيط والإعداد ونضمن النتيجة فيما بعد ؛ إمكانية أن نزيد كل يوم من رصيد عملنا الصالح. ونؤمن بالنصر والثواب العظيم.

ومن معجزة القرآن اشتماله على الإخبار بالغيب والتنبؤ بقضايا مستقبلية كثيرة حدثت بعد سنوات من عصر التنزيل.

حدثت وتحدث كل حين لأن الإعجاز فيه أنه يصلح لكل زمان ومكان.

المستقبل يصبح ماضيًا، وحاضرًا عندما يتحقق، ويظل مستقبلاً لقادم السنين.

ويقول الإمام الشيخ محمد عبده: تحقّق وعد الله لرسوله وللمؤمنين، ووعيده للكافرين.

(وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنّهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكننّ لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنّهم من بعد خوفهم أمنًا).

يقول الأستاذ الإمام بنص كلماته : « إن الله تعالى لمّا ينجز وعده هذا كلّه بل بعضه ولابدّ من إتمامه بسيادة الإسلام فى العالم كله ».

وأؤمن عن يقين بأن هذا الوعد قائم وأنه تحقق فى الماضى، وتحقق اليوم وسيظلّ يتحقق دائمًا، طالما الغد بإذن الله يجيء.

صيغة المستقبل إذن تظلّ قائمة ومعلنة حتى يرث الله الأرض ومن عليها، وتلك هى المعجزة، وذلك اليقين هو طوق النجاة الذى يمدّنا به الله الرحيم.

وما علينا إلا أن نزيد من رصيدنا من العمل الصالح، ونشتغل بطاعة الله، ونعدّ العدّة ونثق بالنتيجة وفيها الغلبة والعزّة.

إن ذلك يحدث على مستوى الأفراد والشعوب، على المستوى الشخصى والعام.

والآن والدول العربية قد أصبحت أشتاتًا وتفرقت كلمتها، وسادتها الفرقة والخلاف مثل القبائل المتعارضة التى كانت قبل ظهور الإسلام.

لكن الإسلام وحّد بينها، تشريع سماوى حقق العدل والإخاء والمساواة.

صاغها أمة واحدةً من جديد، أجمعت على القول والفعل؛ لذلك قويت وسادت وأشرقت على العالم حضارةً وعلمًا وخلقًا.

نحن أمام ذات التجربة، الماضى يتداخل أمام عيوننا مع حاضرنا مع ما حدث فى غد الزمان البعيد.

ها هو التاريخ وكأنه يعيد نفسه، فهل نستشعر ما نحن فيه من هُوىً وهوان؟

هل نجمع كلمتنا على الإسلام، ونقيم الراية الشاهقة نستظلّ بها فى جهادنا الكبير؟ نعمل من أجل الغد القادم الموعود!!

بردًا وسلامًا

قرآن الفجر كان مشهودًا، آيات تشرق بها نفسى.. تتخلل كيانى.. تشع بها خلاياى تصل إلى مرحلة التجلى.. نتمثل معانيها مجسمة حية، وحاضرة. نراها رأى العين فى جلاء ووضوح..

نكتشف بها زوايا مضيئة.. نرتفع إلى مرحلة من النضج الإنسانى، تنزل على القلب بردًا وسلامًا ويغمرنا الحب.

(قلنا يا نار كونى بردًا وسلامًا على إبراهيم)

رؤية بصرية تتجلى من الآيات.. تجد أنت نفسك، وأنت جمعًا.

الله معك وهو قريب..

يخاطبك فردًا.. ويكلمك بين جموع المؤمنين.

أنت مع إبراهيم والذين معه.. وتجد فيه أسوة حسنة، وصحبه فى

محبة الله .. يحدثك الله ، يناديك .. يعلمك ليثبت منك الفؤاد والخُطا ، ويهدأ روعك ويخلص عقلك من الجمود والقصور .. ورؤية الواقع المحدود .

يهبك فتحًا مبينًا .. فنشهد المعجزة من جديد ، ونتأمل حكمتها .. وإمكانية حدوثها حتى فى المدينة القاسية .. والقرى الظالمة وهجير الطرقات ، ومد العذاب المتصل .

ومن يرغب عن ملة إبراهيم ؟ .

كان أمة ، قانتًا وحليمًا اصطفاه واتخذه الرحمٰن خليلا ، ملة أبينا إبراهيم التى ننتسب إليها جميعًا ونفخر بها ، وتصلنا بجمعنا .. من يرغب عن صبغة الله ؟ .

إلا من هانت عليه نفسه حتى يذوى بغصنه من شجرة النبوة البهيجة .. ويقصم فرعه عن الذرية الصالحة ، ويرتضى لنجمه أن يأفل .

كيف السبيل لمن لا يتمثل بين دروب حياته الشدة والعنت والإرهاق لخليل الرحمٰن فى حله وترحاله .

كيف لمن يريد أن يورث ذريته نشأة صالحة .. وخلقًا قويمًا ، وعقلية مستنيرة تمتلك قوى الاستدلال والترجيح ؛ ولا يحكى لهم جهاد ومواقف أبى الأنبياء .

من يرغب عن ملة إبراهيم – إلا مَن سفه نفسه – واستهان بقوة عقله وإدراكه ، وموهبة التفكير لديه .. وكأن معزولا عن نعمة

السمع والبصر فاستحب العمى على الهدى.

دعوة إبراهيم هى التوحيد.. إسلام القلب لله.. والإخلاص فى العمل وإقامة الدين.

حياته تربية دينية خالصة، واختبار طويل.. وبلاء شديد. مراحل نموه ونضجه مثال للاستدلال العقلى، وإعمال الفكر.. واستلهام الفطرة السليمة.

رفع ميزان العدل الإلهى.. وجعل الدين أسلوب حياة يمتزج بالنفس ويبعث فيها قوى الخير، وتصبح العقيدة أعز من النفس والولد.

كان إبراهيم متيقظ الذهن منذ طفولته.. يتأمل فيما حوله ولا يرضى عن عبادة الأوثان، داخله اقتناع باهر بأن الإله لابد يكون له الكمال المطلق.. الوحدانية.. والإرادة. هو فى داخله «الحى القيوم».. العلى القدير..

أعلى من نجوم السماء.. تطلع إلى القمر.. إلى الشمس - هذا أكبر - عاد يقول بقوة: (لا أحب الآفلين).

الأفول يعنى تحولاً وتغيرًا..

لا يمكن أن يكون إلهًا من يعتريه النقص.. يشوبه التحول والتبدل.

إذ لابد له من الجلال والكمال.

يكون وحده مصدر الوجود والحياة.

القائم بالأمر .. المدبر ، وهو البديع المصور .
عقلية طموحة مستنيرة .. وتفكير فطرى سليم ، تصور تلقائى .. استدلال مقنع وارتقاء بالتفكير حتى مرحلة اليقين .
هكذا دله تفكيره .. وقوة منطقه وحسن رؤيته للأمور .
وصل إلى بدء المعرفة الصحيحة :
كل ما فى الكون « مخلوق » .. ولابد من وجود « الخالق » .. خالق الكون والناس ..

والإنسان بلا شك أعظم المخلوقات .. إذ الكون كله مسخر له . مفعول لينتفع به .. ميزه الله بهبة « العقل » .. الذى هو وسيلته للهداية ومعرفة الله .
واطمأن قلبه .
– لقد بلغت به خصلة التفكير والتأمل مداها حتى لقد سأل ربه أن يريه كيف يحيى الموتى ..

(قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى) .
واطمأن قلبه .

وهكذا عندما كان يفهم يقتنع ، ويجد لزامًا عليه أن ينتقل من مرحلة العلم إلى العمل .
كان يريد ليطبق قانونه على الناس .. حَسِب أن أسلوب الإقناع يثمر بينهم لكنهم كانوا قوم بور ظالمين ..

(إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون).

واستهول الأب الأمر - بضاعته تبور فى بيته!.

(أراغب أنت عن آلهتى يا إبراهيم).

لم يُجْدِ النقاش، تأزم الموقف.. ازْوَرَّ عنه الأهل.. وهدده الأب بالرجم.. عملية انفصام عسيرة.. يشقى بها الإنسان طويلا..

فجأة تجدْ نفسك وحيدًا غريبًا.. وأنت وسط أهلك، داخل بيتك أو خيمتك.

لم تعد سكنًا.. ولا تجد فيها مأوى ولا أمنًا.

أبوك.. أبوك غاضب يقول (اهجرنى مليًا).

يدير لك ظهره، يولى عنك سمعه وبصره.. ولا يستجيب لدعوتك.

ينكرك من جئت من أصلابهم.. ومن بين أحشائهم.. من حملتك. وأنت فى علم الغيب.. فى ظهورهم وأمانيهم.

من كنت تستظل بهم على الأرض.. وتَرْكَن.

والإخوة يصابون بالتوحش والسّعار.. لماذا لا تكون مثلهم؟ تتبع ما كان عليه آباؤك وأجدادك؛ وتستسلم للأصنام والأوثان والعالين. لم تصعد ناظريك إلى السماء وتجر عليهم المتاعب.. ينهشون لحمك، ويسخرون منك.. ويتحولون إلى أدوات تعذيب.

وتشقى زمنا .. تعانى آلام الانفصام عن الأهل والديار وتنكر الصحاب ..

تحاول مداواة الجرح .. شفاء حدة القطع ..

تربت على نفسك .. تقول لا حل لى ولا مخرج ؛ إلا أن أفتح بينى وبين قومى – بالحق – أستظل بدفء العمل بينهم .. دعوتهم إلى إصلاح حالهم وبالهم .. حسن الحياة والمآب ..

الصبر والمصابرة فى حمل الرسالة ..

فكر إبراهيم ليجرب طريقة أخرى يحل بها مشكلة قومه – يحطم التماثيل – وبذلك يفحمهم بحجة بالغة الوضوح والمنطق يقدم إليهم الدليل العملى .. والبرهان الواقعى .. يثبت أنهم لا يملكون لأنفسهم ضرًا ولانفعًا .

– كان مثالى الفكر .. صافى الذهن ، نقى السريرة ، وثار الناس عليه !

(أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم) ؟

(اسألوهم إن كانوا ينطقون) .

... ...

(أتعبدون ما تنحتون) .

... ...

وبرغم الخزى فى المجادلة العلنية ، وخذلان الآلهة الصماء . وأشلائها المبعثرة ، فإن جماهير العامة هاجت هياجًا شديدًا .. !

ذات الجماهير التى حسب إبراهيم أنها ستقف بجانبه تدعمه.. وتشد أزره، وتنصر دعوته.

لكن العامة كثيرًا مايؤلبها الحكام.. يخدعها الرؤساء والمتحكمون فى مصيرها، يجعلون البسطاء يقفون ضد مصالحهم.. وفى مواجهة من يريدون الإصلاح. الملوك والكهان.. والملأ الأعلى من المترفين - هم أول المكذبين - مع ذلك يتظاهرون بالحرص على التقاليد والأخلاق، ويصل بهم الأمر أحيانًا إلى ربط نسبهم بالدين وقولهم: إنهم حماة العقيدة..

يحرصون على بقاء البدع والخرافات، وزخرف الطقوس والقرابين.. يحرصون على إقامة الشعائر. ولكن بعد إفراغها من أى مضمون - لأنهم فى النهاية مَن يفوزون بالهدايا والقرابين.

هم يعبدون فى الأرض ويتحكمون.. وتبقى لهم المناصب والمنافع وتبعية الناس وخنوعهم.

دعوة إبراهيم تقصم ظهر مكانتهم وكنوزهم، وتضخم خزانتهم - وهل أخطر من دعوة تدعو الناس للتوحيد والتفكير؟.

وهكذا فعلوا لإبراهيم..

جمعوا له واحتشدوا.. وقالوا: إئتوا به على أعين الناس..

وبرغم تفوقه عليهم فى المحاجاة.. وعلو منطقه.. وإتيانه بالدليل فإنهم استكبروا.

الأمر لا يتوقف عند تسفيه الأرباب.

المسألة تتهددهم فى الصميم.. فى الكهانة والقداسة التى يدعونها.. وهى ثورة على ما وجدوا عليه آباءهم، وما ألفه الناس من خضوع، واتباع كل ما يؤمرون به..

ضربة مزلزلة تهدد أركان الدولة المترهلة.. والطغمة الراكدة.. تجعل الأرباب المتفرقة إليها واحدًا.. يتساوى عنده الخلق أجمعون. وهذا ضد ما ألفوا؛ فهم لا يرتفعون إلا بقهر العباد وسلبهم حقهم فى القول والعمل.. وكثير من البشر يعيشون ويموتون وهم كالأنعام يساقون فى قطيع.. لا يريدون شغل بالهم؛ يأخذون الأوضاع المحيطة بهم قضية مسلمة وقدرا - وهذا أدعى للسلامة فى نظرهم - البعض يتخلى طائعًا عن أعظم منة وهبها الله للناس وكرمهم بها.. هبة التفكير.. يحجر على عقله ويتجمد تماماً كإنسان ويسلم قياده لغيره.

دعوة إبراهيم تجعل الأمور صعبة.. توقظ أرواح الناس.. تدعوهم للتدبر والتأمل للنظر فى حال الكون.. والأمم التى سبقتهم، وعاقبة المستكبرين.. منطقه ساحر، وحجته قوية. وبيانه آسر.

كان لابد من التصدى لهذه الدعوة بالحريق..

«النار» كفيلة بمحو كل شىء.

ليس أقل من النار بها ينقذون، ويرهبون الآخرين..

«الإحراق» عقوبة الدعاة والمفكرين والمجاهدين

الذين يعيشون ويلات الإنسانية .. ويدعون إلى فكر جديد، وعقيدة عدل وحق ..

- حتى الكتب لم تسلم من الحرق فى القرن العشرين - وتحضر عتاة القوم فى الزمن الحديث فلا يشعلون نارًا، ولا يجمعون الحطب وأدوات الحريق؛ لكنهم يحرقون دون رؤية اللهب واللظى .. ودون تصاعد أبخرة التفحم ومس السوء ..

وترعى النار فى القلب .. والحنايا وأواصر القربى والمحبة.

لابد أن إبراهيم أخذة الروع وهو يُساق إلى الأتون .. لابد كإنسان - ارتجف من الحفل الوحشى المعد له ..

والحشد من الذاهلين ..

قالوا: ائتوا به على أعين الناس ..

ولابد أنه سمع صوتًا خفيًا - أن اثبت .. اصبر .. ولا تخف .. وشاء الله أن تقع المعجزة - على أعين الناس - يرونها رأى العين.

(قلنا يا نار كونى بردًا وسلامًا على إبراهيم).

ونحن فى زمن بعيد عن قيام المعجزة .. لم نشهدها ولم نكن من «الحشد المهول» .. لكن الله تعالى أخبرنا بها، صورها فى كتابه الكريم، رواها أصدق الحاكمين.

كلمته تكون .. كلمته وعد مفعول .. كلمته تقول فى كل الزمان: الله سبحانه وتعالى له الكبرياء فى السموات والأرض - والذى أتقن

كل شيء صُنعًا – لم يخلق كونه عبثًا، ولم يضع شيئًا لغير حكمة..
ومادمنا نحن المخاطبين بهذه المعجزة.. السامعين بها، الدارسين المتأملين.

وإيماننا يصح بأنها واقعة – علينا إذن تفهم حكمتها وإدراك مدلولها، وحتى نراها أمامنا مجسمة – رأى العين – نتمثلها.. نعيد تصورها، نقيمها حاضرة بين أيدينا – وكأننا شهود.
رؤية بصرية.. محسة ووضوح.

رؤية حقيقية توضح مدى عمق دلالتها وضرورة أخذها بقوة..
تمتد نعمة الجلاء البصرى لدينا حتى لتشمل أيامنا وترطب لفح النيران من حولنا.
وتثبت منا الفؤاد والخطا..
حريق يعده لنا الطغاة كل حين ومنذ فجر النبوة..
ومن يدعون القربى لإبراهيم!
أتون يسلطه علينا – قتلة الأنبياء – ويحرقون مناضلينا.. ويعقمون نساءنا..

ويدفعوننا فى أيام نحسات – لنكون من الشهود –
معجزة أن تكون النار بردًا وسلامًا على إبراهيم.. معناها: أنه حتى لو كان الابتلاء كالحريق – فإنا لا نتخلى عن عملنا.. نهن.. نذعر أو نلين..

الحرق لا يمحو الفكر لأنه ينبت فى عقول وقلوب الآخرين..

دعوة إبراهيم لها ورثة أبرار، وذرية من المتقين تأتى الله بقلب سليم، نستطيع بإيماننا ونحن فى قلب الأتون - أن ننجو من الحرق ونرتفع فوق ألسنة اللهب..

يظهر الصهر حقيقة معدننا، وصلابة جهادنا.. وأن العقيدة لدينا أعز من النفس والحياة.

مهما يحفرون، ويشعلون نصر على ألا نذوى.. أو نخر منقلبين..

وممكنة دائمًا المعجزة..

ينقلب كيدهم.. ويكونون فى الأذلين..

يجعلهم الله من الأخسرين..

يصرف عنا مكرهم.. ينجينا ويرفعنا درجات..

ممكنة المعجزة، ودائمة الحدوث..

تقع وتحدث - بصيغة المضارع الممتد حتى آفاق المستقبل البعيد - ونخرج من المحرقة ناضجين مسبحين.

إنما أشكو بثّى وحزنى إلى الله

هدهدتنى الفكرة الملهمة فوق موج الحزن..

- حرية فسيحة تشعر بها وأنت حزين -

تشرد.. تغيب، تبيض عيناك من الدمع تقعد بمعزل.. تسجد أو تقوم.. «تقرير حالتك» يقول إنك حزين وثمة فاجعة معلنة وقعت لك؛ لذلك يعفيك الآخرون من السؤال والاستكشاف.. والتقصى، وقياس درجة الاحتمال.

يصير معلومًا أن هناك حالة قصوى تستدعى - الحزن العام - يتركونك لحظات تلتقط فيها النفس.. وربما «يهدك» الحزن.. يقطع دابرك أو ينهى سيرتك!.

وتجدف «بـ ـ» فى بحار الحزن، تتطهر بين السباحة

والغوص .. كلما أدركك الغرق تجد أن يدًا حانية تدفعك ، وتطفو بك وتربط على قلبك ؛ وتردك إلى معجزة البعث والحياة .. تعاقب الليل والنهار .. تجد مشاعرك وقد اهتزت وربت .. تعود الأشياء إليك «مبصرة» .

عندما تصل إلى شاطئ الصبر .. تجد أن الله قد من عليك - تجد أن ذكره وتسبيحه وأنت تصارع الموج ، وتقاوم الغرق .. وتشق طرقتك وسط الظلام - هو طوق النجاة ، وسبيل العودة .. حتى لتشعر أنك ولدت من جديد .

أمام ساحل ممتد إلى الأفق من «الصبر الجميل» .

كنت وأنا صغيرة أعجب كثيرًا .. كيف الصبر جميلا ؟ .

وعرفت أخيرًا ..

لأنها القمة التى تكابد حتى الصعود إليها .. تكبو دونها مرات ومرات ، ولكن عندما تصل لا تسقط «بحملك وهمك» لتبدأ من جديد ..

بل تبقى فى واحة الأمان وظلال الرحمة .. لأن الوصول هو المشقة والاحتمال وجهاد النفس .. وتفوق على المتاعب والأحزان .. وتعلق بالأمل والرجاء ومداومة الارتقاء .

يقول «بشر بن الحارث الحافى» : أكبر زهاد عصره - وكل العصور -

«الصبر الجميل هو الذى لا شكوى فيه إلى الناس» .

وما الصبر إلا بالله .. لا حزن ولا خوف مع الصبر .. ولا ضيق مما يمكرون .. صبر أولى العزم من الرسل ..

ميراث الأنبياء ..

« الصبر الجميل » دعوة نبى الله يعقوب .. مقولته الأولى عندما جاءه أبناؤه عشاءً يبكون قالوا : يوسف أكله الذئب .

قال : فصبر جميل - والله المستعان على ما تصفون -

من منقذ الأب الجليل من فاجعة النبأ - وقول السوء .. وقسوة الأبناء والصورة المروعة ؟.

الموت هول .. ومصاب أليم .. وإحساس الفقد مرير ..

لكن أن يقال « هكذا » - أكله الذئب .. ويجيئون بدم على القميص ! .

الصبى الجميل .. باهى الطلعة وضاء الجبين - خرج على وعد أن يرتع ويلعب ...

- لم يكن رباط الدم ولا عاطفة الأبوة فقط ما يجعله قرة عين أبيه -

ولكن ذلك العلم اللدنى الخاص - الذى يعلمه من الله يعقوب عليه السلام - والإحساس الملهم .. إدراك عن يقين أن يوسف هو امتداد لشجرة النبوة .. إنها محبة فى الله . وطريقه « رباط الإيمان » وصلة العقيدة والتوحيد -

ظنوه فى غيهم وضلالهم تفضيلا للصغير .. قالوا بحمقهم وسطحية

تفكيرهم: «يوسف أحب إلى أبينا منا».

نزغ الشيطان بينهم - والشيطان يبرز من بين الأحقاد الصغيرة والمشاعر الضارة وجفوة الطباع.

كبرت المسألة عليهم.. حكموا على أبيهم «بالضلال».

نبى الله يعقوب المؤتمن على رسالة السماء.. يدعو إلى عبادة الله وإقامة العدل، يتهم بأنه «فى ضلال مبين» - من وجهة نظر أبنائه العابثين؛ وليت الأمر وقف عند هذا الحد.. بل استكبروا. وزادوا فى غيهم - والشيطان يعمل بينهم - نصبوا من أنفسهم قضاة لأبيهم، وأصدروا حكمًا مروعًا، وقاموا بالتنفيذ - اقتلوا يوسف أو إطرحوه أرضًا يخل لكم وجه أبيكم - حذرهم الأب - قبل الخروج - أن يغفلوا عنه..

لم يشأ أن يرفض دعوتهم - حتى لا يجرح مشاعرهم!.

أجابوا بمنطق معسول: كيف يمسه سوء ونحن عصبة هكذا؟.

فى اللحظة التالية كانوا ينفذون جريمتهم - لم يخجلوا - وهم عصبة - أن يجمعوا ويجتمعوا فى مؤامرة ضد الوالد والأخ.

كل هذا الجهد من التخطيط والتدبير..وفنون الخداع والمراوغة، والخسة والنذالة المتدهورة - يتم تحت ستار الرغبة فى الحب.. والنزوع إلى المحبة حتى يخلوهم وجه أبيهم!.

ودائمًا الذين يفسدون فى الأرض - يبررون ما يفعلون - ويزيفون على أنفسهم والآخرين - نكون بعدها قومًا صالحين -

وهل الحب طريقه القتل والغدر. ومكر السوء، وقطع ما أمر الله به أن يوصل - والاعتداء على البراءة..

وهل يستحق الحب من يريد علوًّا فى الأرض وفسادًا، ويضع نفسه مكان «الذئب».

دخل نبى الله يعقوب الامتحان العسير.. ألقى فى غياهب الجب أتون من الحريق.. يتجرع وحشية الصورة وألم الفراق.. وحرقة الفقد، ونهش الخيانة والغدر..

زاده الألم والدموع.. الحزن والصبر الجميل..

مكتوب على باب العذاب بأحرف من نور. «ومن يقنط من رحمة الله».

انصرف الأبناء «الأشداء» إلى أمور دنياهم، انشغلوا بها.. تركوا أباهم مع الحزن المقيم..

عندما كان يذكر يوسف - يتندرون بذلك.. ويعدونها نكتة - ويسخرون، خرف وخبال.. يلقون بالبذاءة أمام الوجه النبيل و«ألا تزال على ضلالك القديم»..

(إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله).

دعوة نبى.. يستعصم بالصبر الجميل.. لا شكوى فيه للناس..

دعاء البث والحزن لله وحده القدير والمعين..

لا إهدار «لفعل» الصبر، ولا تبديد لطاقاته الملهمة للنفس..

لا مجال للصراخ أو الأنين والشكوى للآخرين..

-ذكرتنى بالنظرية العلمية الحديثة- الولادة بدون ألم-

تعتمد فى أساسها أن المرأة مهيأة لعملية الولادة والحمل - وإذا كانت ثمة عمليات ميكانيكية مهولة، تجرى فى الجسم البشرى دون أن تحس بضرباتها الموجعة، أو إيقاعها العنيف وتفاعلاتها المثيرة - مثل هضم الطعام والتنفس - كذلك عملية الولادة بالنسبة للمرأة. الجنين يدفع بنفسه غريزيًا إلى الخارج، والرحم ينقبض ويتقلص ليقذف بحمله، وتأتى الدفعات على هيئة «طلقات» متتالية..

فإذا صرخت المرأة وتعالت صيحاتها.. أهدرت قوة الدفعة وبعثرت جهودها.. بل إنها تعرقل عمل «المخ» المنظم للعملية كلها وتربك نظام إشاراته السريعة وأوامره.. ويتضاعف الإحساس بالألم..

كذلك الصبر يحتاج للصمت.. تحمل «الضربات القاصمة» حتى تتحول إلى قوة دافعة، وطاقة تحمل وقدرة على الصمود..

لا أنين ولا صراخ.. لكى تهيئ للعقل مهمة عمله فى التحليل والتدبير والتأمل.. والاستنتاج المدهش والقياس..

إطلاق قواه وإشاراته الملهمة.. حتى نحتفظ بصفاء المجال لكل القوى الداخلية، وهكذا تتم العملية بصورة طبيعية.. ويأتى الفرج والمخرج.. ومن المعاناة تولد من جديد.

وحتى إذا كان الصبر على الموت.. فقد الأحبة..

فالصبر يفتح لك نافذة الأمل .. أنت على موعد باللقاء .. فلتحسن عملك فى المرحلة التى تسير فيها وحيدًا .. لتعمل بقدرة مضاعفة لك ولمن أحببت .. لتحسن صنعًا وقولا وتنفع الناس لتكون جديرًا بحبهم ولقائهم فى ساحة الرضوان ..

أنت على موعد باللقاء فى أبهى زمان ومكان ، وأعظم صحبة .. (أشكو بثى وحزنى إلى الله) .

نستعين بالآية على الحياة والعناء ..

عندما يرتفع مد الأحزان .. نتلوها قائمين وساجدين ، وتستعيد الكلمات فيها بيان وآيات للسائلين .

أن يظل القلب عامرًا بالإيمان - برغم كل ما يحيط - نبقى على ذلك النور الداخلى الكامن فى الأعماق .. ونعمل على طريق الاستقامة والخلاص والنجاة ..

ذلك الرجاء الفطرى السليم الذى يربط المخلوق بخالقه .. لا تستطيع قوة أن تنفذ إلى مركز للنور فى جوف المؤمن - قوى الحديد والنار لا تقطع سريانه ولا تخفت إشعاعه .. يوسف وهو صبى فى قاع البئر .. ظل يتعلق ببصيص الرجاء حتى أمسك بطرف الدلو ، ولما أحاط به « كيدهن » - وهو فى عنفوان الشباب - اعتصم بالله وتمسك بالعفة والاستقامة حتى هوى إلى قاع السجن !! برغم ثبوت براءته .. وتجلى الحقيقة - واكتشاف مكر السوء ..

وقيام الأدلة - من أهلها - ظل مخذولا .. منسيًا بين مجرمين .. ضحايا وخاطئين ..

ومع ذلك حول السجن إلى خلوة عبادة .. إلى مكان عمل .. مركز إشعاع لرسالة مقدسة .. ظل يمارس رياضته الدينية .. ويغزل حبال الصبر ، ويكتسب المزيد من لياقته الروحية - ويرتفع فوق المحنة ليوقظ أرواح السجناء وعقولهم ..

مثل المسيح عليه السلام أيقن أنه بعث وسط خطائين .

وعندما نصل إلى ذروة القصة ، وندرك كيف مكن الله ليوسف فى الأرض ، وخرج ليطبق ما آتاه الله من حكمة وعلم .. ويقيم عدالة على الأرض .. ويصدر من مصر العدل والمساواة والإخاء ..

نمسك بين أيدينا بمعنى جليل .. ونصل إلى نوع من الجلاء البصرى أخاذ ، على أنه مهما كانت الظروف ، وتراكمات الأحداث ، وتلال الخطايا ، والمكائد الموضوعة ، والتدابير المصنوعة ، واستفحال الفساد .

يجب ألا نصل قط إلى تلك الحافة الخطرة - اليأس - منزلق يؤدى إلى الخذلان والتردى .. والخسران المبين ..

(ومن يقنط من رحمة الله إلا الضالون) .

العزة والغلبة ونصر الله .. للمجاهدين الصابرين ..

الذين يعملون ويتقون ولا يأس لديهم أو قنوط ..

هكذا أينعت شجرة النبوة وهو ميراث الأنبياء للمؤمنين ..

كل منا يصاب يومًا - بهذا النوع من العمى المؤقت - وعلى المستوى العام والخاص .. الرغبة فى عدم رؤية القسوة والظلم .. ومظاهر اغتيال البراءة والنقاء ..

لكنا نحتاج للعمل .. للمثابرة .. للجهاد .. حتى تتجلى الحقيقة وترتد إلينا « نعمة البصر » - ولا نكون على البصيرة - معزولين ..

المعجزة الكبرى فى آيات - يوسف وإخوته - أن الأبناء القساة خشعوا عندما رأوا برهان ربهم .. تابوا وندموا .

وعندما خاب سعيهم .. وتبدد كيدهم .. ومكن الله ليوسف فى الأرض ، وكشف الضر عن أبيهم - ارتد كل واحد منهم بصيرًا - عرفوا كم كانوا قساة جفاة .. نوال الحب ليس بالتزييف والقتل والكيد وتدابير الجريمة ..

الرغبة فى الحصول على الحب والتأييد لا تكون بمكر السوء والكذب والتلفيق ، بل تستدعى عملا وصلاحًا والتزامًا بجانب الحق والصدق ..

واختلاف الليل والنهار

أنصتُ إلى التلاوة ...

يشيع الجلال من حولى ، يتأهب عقلى .. تسمو نفسى وتسبح فى بحار من نور ، تعلو إلى آفاق من الحب والتأمل .

ندرك الحكمة فى إقامة القرآن .. صياغة النفس به كى ترتقى .. تتحرر يتسع وجودها حتى تجد غايتها .. الالتزام بالخير والحق ، وكل مافيه نفع الناس .. ومرضاة الله .

ولأن آيات القرآن محكمة «مفصلة ومتصلة» نجده هكذا «حاضرًا» فى لحظة يملأ الكيان والسمع والبصر .. يصل إلى الحنايا والخلايا ويخفق منه الفؤاد .

تتراءى صوره «شاهدة» .. حية مليئة بالحركة ، مثقلة بعطر

الألوان .. عميقة الدلالة والبرهان .

(قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدًا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون . قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدًا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون) .

حقًا ماذا يحدث لو أن الليل ظل دائمًا ..

أو النهار بقيت آيته مبصرة ، شاخصة واشتد وهج وحرقة الضياء .. ظلت الشمس مصلوبة فوق رءوسنا ، والأشعة تشد منا الجفون والأحداق .

تلوت الآيات كثيرًا ، واستمعت إليها .. تأملتها ، ولكن ماذا تصنع بى الآن ، ترجنى من الأعماق .. تعول بى ، يهولنى وقعها .. أراها مجسمة ، يأخذنى سحر البيان فيها ، ومعجزة التبيان .

عجبت منها مرة فى الصغر ، بدت لى الصورة محيرة .. بعيدة المحال ، نائية عن الإدراك .. وعسيرة الإحتمال .

ويبدو أنى هربت من مواجهتها .. فررت كما آبق إلى السفين يونس الرسول .. فزعت من الصورة والمقابلة .

غيبتها فى منحنيات الذاكرة .

وفى رحلة التكوين والتعرف على شتى العلوم والفنون .. أذهلتنى جزئية صغيرة تقارب هذا التصور المبدع ، وإن غاب عنى الأصل .

وصف بعض الفلاسفة الماديين « الجحيم » . قال واحد منهم عنه :

إنه عيون الآخرين..

عيون بلا غطاء مفتوحة إلى الأبد.. كأن لا بد بها ليل أو نهار.. لا تسكن، تطرف أو تنام.. لا تحصل على تلك «النعمة» المتاحة لنا جميعًا - طيبين وعصاة - ممنوعة من لذة الاسترخاء.. متعة تثاقل الجفون، والاستسلام للنسيان والنعاس.

كنت أردد لنفسي ياله من تصور فذ وتصوير ملهم.. كيف توصل التفكير إلى مفردات هذه الصورة الوحشية، المعذبة، إنه الجحيم بالفعل.. أشد أنواع التعذيب والعقاب..

ولكن ذلك لم يكن إلا مجرد جزئية صغيرة من المشهد الكامل المعجز الذى صورته الآية الكريمة إنه «الكتاب» نتعلم منه الحكمة نعتاد التفكير السوى المنطقى لقطة تضج بالحركة، بضوء النهار فيها «معاشا» والحياة تلهث.. وكل الأشياء تلهث شاخصة.. حارقة، مضنية القسمات.. لا سكن فيها ولا رحمة، لا أمن فيها ولا نعاس.

وتشحب هذه المرئيات فجأة.. ويغشاها ليل أبدى يرخى أستاره، حالك العتمة كثيف الظلمات.

خانق.. ثقيل.. مترع بالوحشة، ولا بصيص نور أو رجاء من إله غير الله قادر على ذلك التعاقب بين الليل والنهار.

يذهب الليل ويجيء النهار، وكل بحساب.

دورة منظمة، دقيقة الوقع.. مرهفة الإيقاع..

دليل على وحدانية الله

الزمن ينشأ من: (اختلاف الليل والنهار).

كلمة فيها الحركة، والتجلي والتواصل والاتصال.. الزمان يتخلق بمشيئة الرحمن أن:

(يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل).

من هذا التدرج الأخاذ بين وشاح الليل، والخيوط المحملة بالضياء تكون دورة الحياة والأيام..

ليل نسكن فيه ونبيت.. ونهار نتحرك ونصرف أمورنا، ونعمل من إله غير الله..

تبينت عمق الدليل.. وسطوع البرهان.

لو أن الله جعل الليل سرمدًا.. من إله غير الله يأتي بالضياء.

ولو جعل علينا النهار سرمدًا.. من إله غير الله يأتي بليل يغشانا فيه النعاس ونحس بالأمن داخله واحتواء الرحمة والمحبة.

هو الله لا إله إلا هو..

التوحيد أقرب إلى الفطرة السليمة.

إلى اطمئنان القلب.

تعبد الإله الواحد، القادر الوهاب.. تناجيه بكل قلبك.. تناجيه وتدعوه، تأنس به وتستعين.

التوحيد يلبي حاجة الإنسان الداخلية.. التعلق بالقدرة والقوة

ومصدر الخلق والإيجاد والإبداع.

ومع ذلك يجادل بغير الحق المعاندون.. والمفسدون فى الأرض وأشداء الكفر فى كل زمان ومكان.

يقولون دومًا (أجعل الآلهة إلهًا واحدًا).

كيف لمن يتشتت قلبه ؟ لكنهم يعبدون كثرة المال والسلطان والجاه، وشتى من الأوثان.

وتجىء الآيات الربانية متصلة بينة.. وساطعة كمعجزة برهان اختلاف الليل والنهار.

(أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار).

منطق واضح جلى.. إرادة عُليا ومشيئة قادرة.. وقُوة مطلقة مصدر النظام والإتقان.

كل الأدلة والبراهين وأعمال الفكر والسمع والبصر، وتلقائية الفطرة وسلامة الفؤاد.. كلها تؤكد وحدانية الله.

تتقرب إليه بفعل الخيرات والعمل الصالح ومحبة الناس.

ويمنحك اطمئنانًا وسلامًا.

ويتألق جبينك بالثقة والعزة.

ويتعجب المستكبرون فى الأرض لماذا برغم كل ما يحيطون به أنفسهم من مظاهر السطوة والجاه.. قصور ومال ومتاع، ومع ذلك يلاحقهم الخزى ويحيط بهم الهوان، وينصرف عنهم الأتقياء وأولو العلم.

ذلك لأنهم يجعلون لله أندادًا.

يعبدونهم من دونه على الأرض.. ويخضعون.

يعبدون أشياء أصنامًا، بشرًا متسلطين.. وجائرين.

يحكمون بالهوى ويتعدون حدود الله، ويدخل كل ذلك فى خطيئة الشرك كذلك من يغش ويحتال ويزيف.. أو يروج لسلعة رديئة. ويلوى عنق الكلمات.

المؤمن ينعم بالحرية.. وتتألق لديه موهبة الاختيار.

للمؤمن محبوب واحد بيده ملكوت كل شيء.

الخضوع لله وحده وعبادته تجعلك حرًا.. لا تخاف ولا تحزن.. وتعيش حياتك فى سمو وارتقاء وعزة..

وتقول الآية وهى تفيض نورًا.

(إنما إلهكم إله واحد فاستقيموا إليه).

طريق الاستقامة هو الطريق إلى الله.

الاستقامة إلى الله.. ياله من تعبير معجز!

الاستقامة إلى الله هى الدليل والطريق والغاية والمقصد.

هى صلب عقيدة التوحيد. جوهر العبادة، وصلة المودة والقربى.

إننا إذا فقدنا الاستقامة كأفراد.. وصفة الوفاء بالعهود والوعود اهتز بنيان المجتمع كله.. وانهارت البنايات وشاع الفساد، وأكل الناس حقوق بعض بالباطل.

وذلك كله من أسباب تأخر المسلمين.. وهوانهم وفرقتهم وشتات قلوبهم يعيشون كأفراد، يعمل فيهم الجشع والطمع.
والعلاج أن نقوى إيماننا ونقيم كتابنا، ونستقيم إلى الله.

رَضى الله عَنْهُمْ

ظلت فى جوفى « الآية » أروح وأغدو بها .. تعمل فى عقلى وقلبى ، وأتلوها فى أكثر من سورة فى القرآن .. أفكر وأتدبر معانيها فى مشهد الفجر ، وتنفس الصبح وفى هدأة الليل والأسحار . حتى أشرقت بها نفسى ، وسطعت بنورها من حولى .. تجسدت أمامى صورة موحية .. وبيان تبدت كمعادلة باهرة .. ونتيجة فائقة :

(رضى الله عنهم ورضوا عنه) .

حنو غامر .. ونور أخاذ .

كفتا ميزان يقيمه لنا الله .. يرفعنا إلى جلال عدله .. ونعيم المساواة يجعل « الرضا » صلة متبادلة بيننا وبينه – سبحانه – حركة متصاعدة .. ووشيجة حب تسعى إلى الأفق الأعلى .

يشهد لنا « برضوان » يجعل منه سكنًا وملاذًا ، ومخرجًا وهو الفوز العظيم ..

الذين آمنوا وأحسنوا ، والتزموا جانب الحق والصدق - ولا يوادون من حاد الله ورسوله - هم ومنهج الله شيء واحد .. وأسلوب فى الحياة أولئك يرفعهم الله درجات ويصطفيهم ، ويفيض عليهم من نوره ورضاه . فيصلون إلى أعلى مراتب الحب والرضوان .

يسميهم « حزبه » ويكتب لهم العزة ، والغلبة ، والفلاح .. « يرضى عنهم » لأنهم يلتزمون شريعته .. خشيته هذبت قلوبهم وجعلتهم يعملون صالحًا .. ويقولون حسنًا ، ويقيسون حركة حياتهم بمقياس الدين والقربى من الله .

كيف به جل وعلا يزيد من فيض كرمه وإكرامه ليقول فيهم « رضوا عنه » ذلك لأنهم يعشقون كل ما يجيء من عند الله .. ويحبون التكليف .. ويمتثلون كل ما أمر به ..

يؤمنون عن يقين أن كل تشريع هو لخيرهم وصلاح بالهم وأمرهم وسعادة دنياهم ، ووعد النعيم القائم ..

لذلك « يرضون » يرفلون فى حلل الرضا والعزة .. ينعمون بالاستقامة وحلاوة الجهاد .. ومواجهة الشدائد والطغيان .

علاقة محسوسة وقوة دافعة .. رابطة حب أسمى . تزيد من

قدرتنا .. وتنمى حواسنا ، وتصقل أرواحنا ..

نستمد منها « قدرة » فوق قدرتنا .

بل نرتفع بها عن حدود إمكاناتنا إلى قوة وقدرة الله سبحانه وتعالى ؛ بها تتضاعف الطاقة الكامنة لدينا .. وتنطلق الطاقة المبدعة .

وإذا كنا فى حياتنا هذه نكتشف عظمة وعبقرية بشر عاديين فى مرحلة ما .. ويصل إلى أسماعنا وأبصارنا نبأ أناس بسطاء حققوا أعمالا خارقة .. ومعجزات فى مواقف صعبة – حتى لتأخذنا الدهشة أنىَّ لهم بتلك القوى ؟ وأين كانت تكمن ؟ وكيف برزت هكذا إما الشدة أو حدة الموقف .. وربما يشاركونا دهشتنا واستهوال ما حدث ..

كم من أم عادية .. نحيلة وهزيلة ربما .. لكنها تصبح كأعتى الأقوياء ، وتتحول إلى قوة ضارية وطاقة مهولة إذا فوجئت بخطر يهدد أبناءها .

فى قريتنا دفعت أم بشجرة غليظة ، كادت تسقط على ابنها – وكانت قبلها تشكو ألما بظهرها – وأخرى استطاعت أن تزيح عربة محملة من فوق صغيرتها ..

ونقلت إلينا وكالات الأنباء نبأ الأم التى اندفعت تخلص ذراع ابنتها من فم الأسد فى حديقة الحيوان .

ذلك أن الأم هى المخلوق التى شحن الله قلبها وكيانها بطاقة هائلة من الحب .. هى تستدعيها .. وتستقوى بها وتضاعفها حين

الشدة والمفاجأة .. ولا تلبث أن تعود لحالتها الطبيعية تشكو التعب والإرهاق وقسوة العيال والأيام.

فيا بالك بإنسان يحبه الله، ويبادله رضا برضاء .. ويقول له فى آيات أنت بأعيننا لك العزة والغلبة والفوز العظيم.

إنسان يرفعه الله إلى مستوى عظمته ونورانيته ويجعله «راضيًا مرضيًا» كيف لا تنطلق لديه تلك القوى المبدعة، وتغمره العزة والقوة، ويصل إلى التوازن النفسى والروحى، وينطلق إلى مرحلة الرضا الكامل..

دلنا الله سبحانه وتعالى على الطريق .. أن نجعل خلقنا القرآن وأعمالنا صالحة تبغى نفع الناس والقربى من الله.

نجعله معنا «حاضرًا» يسمع ويرى .. نتمثله ونخشاه ونقيم له الحب والطاعة والاستقامة..

هدانا إلى آياته المحكمات، وفصلها لنا تفصيلا، وجعل القرآن «تبيانًا» لكل شىء، وضرب لنا الأمثال .. وخلق لنا من أنفسنا والكون المحيط بنا آية وتدبر وبصيرة .. ويساعدنا على الطريق .. ويمدنا بنور من لدنه وروح منه، ويتوب ويغفر، حتى نصل إلى أعلى المستويات.

فى الحياة نعرف أننا عندما نحظى برضاء من نحب، يتملكنا شعور من الزهو، وتغمرنا الثقة والاطمئنان .. وتتسع لدينا رحبة الحياة..

ولو كان من يرضى حبيبًا أو معلمًا أو قائدًا أو رئيسًا يزداد لدينا الشعور بالأهمية، وحلاوة القربى.. وقيمة المودة فى حين أن من النادر - فى الواقع - أن تتساوى الكفتان. أو تنضبط تمامًا كفتا الميزان وتتوافق المعادلة.

إن رضاء «إنسان» علينا لا يعنى بالضرورة رضاءنا عنه - بل قد يكون وبالا علينا وفتنة للمتقين - كثير من الرؤساء وأصحاب النفوذ والسلطان «يرضون» لأسباب تتعلق بهم - ربما لأنك تؤدى لهم خدمة تزيدهم جاهًا وبريقًا وسطوعًا فى سلم المجتمع - رضاهم قد تكون مادته.. براعتك فى صنع الدعاية لهم - أو فى الخضوع والخنوع فقط مرضاتهم - لأنك تسخر جهدك وتسفح مواهبك لدى عتباتهم.

بعضهم يجعل طريقه إلى الرضا الزلفى والنفاق - وإزجاء كل المديح والحسنات لهم وحدهم. وقد يرضون ولكن على طريقتهم الخاصة - أن تظل من طبقة عبيد - إحساناتهم - وقد ينظرون إلى الرضا لديهم على أنه سلاح ذو حدين.. يمنحونه من يريدون، ويحرمون منه من يستقيم أو يلتزم العزة ويحافظ على كرامته.

لكن رضا «الخالق» يرفعك إلى أعلى يرتقى بك، ويزيدك علوًا ونبلا، بل ويستدعى رضاك أنت «المخلوق».

يجعلك تسبح فى بحار من الرضا بما حباك وهداك، وما شرع لك من حدود تحفظ كرامتك وإنسانيتك.. وتجعلك تعيش حياة طيبة

وتثبت أقدامك على طريق العدل والنبل.

وتجاهد فى سبيل الله لتصل إلى التوازن المثالى.. والعدالة الكاملة، وتبادل المحبة والتمتع بالرضا والفوز به..

ونعيم أن تكون ممن سماهم الله حزبه (رضى الله عنهم ورضوا عنه).

الله سبحانه وتعالى جعل من «الرضا» علاقة متبادلة.. إشعاع حب يتوهج بين الأرض والسماء..

دعاء وابتهال، واستجابة وتأييد.

إقامة للصلاة والقرآن، ووعد الله قائم، والبشرى فى الحياة الدنيا والآخرة جهاد وامتحان.. وتثبيت وتبيان..

وهكذا يقيم لنا الله الميزان، ويحقق لنا التوازن.. والسلام النفسى والاطمئنان.

ويغمرنا بنور المحبة، ويرفعنا إلى القربى منه، وغاية الإكرام.